الأهرام

المصدر: الاستطلاعية
التاريخ: أصفر ١٤٠٢هـ

# المسلمون في الاتحاد السوفياتي

ترجمة: أحمد العناني

المسلمون يشكلون سدس السكان
ونسبتهم هذه ترتفع بمرور السنين

تحسن المستوى الثقافي يقربهم من الإسلام
وليس العكس كما ظن الشيوعيون ..

مثقفو المسلمين يرفضون
أن يكونو رسل موسكو بين شعوبهم

الحركات الإسلامية تقلق راحة السوفييت

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

○ ما يزال التيار القوي للوعي الإسلامي والذي يتخذ في سائر أنحاء الكرة الأرضية أشكالاً متنوعة من التعبير عن وجوده موضع بحوث ودراسات وتعليقات شتى في الغرب والشرق . ومع أن العديد من تلك التحقيقات والدراسات يتسم إلى حد كبير بطابع الموضوعية إلا أن سموم الحقد الصليبي والإلحادي على الإسلام ما تزال تسري في اوساط الغرب والشرق فتثير صيحات هستيرية من النذر والمخاوف من انبعاث المارد الإسلامي بكل ما يعنيه الوعي الأكيد للمسلمين . فيعود الحال إلى صراع مرير بين الحق الذي يمثله الإسلام وباطل الدعوات المادية سواء ما كان منها قائماً على المجاهرة بنبذ كل إساس غير مادي لنظم الحياة عندهم أم كان في حقيقة حاله قائماً على نفعية وثنية وإن لبس مسوح التقوى المصطنعة .

ولعل من ابرز الدراسات الصحفية التي ظهرت خلال الصيف الحالي دراسة مستفيضة لمجلة نيوز ويك الامريكية واخرى ظهرت من قريب لمجلة الايكونومست البريطانية ليس عن العالم الإسلامي بعامة كما فعلت الصحيفة الأمريكية ، وإنما عن المسلمين في الاتحاد السوفييتي ، وعلى ضوء الأوضاع الساخنة في جوار تلك الدولة الكبرى المتعددة العناصر والاديان ○

## المسلمـــــــــــون يشـــكلون
## ســـــدس سكان الاتحـــاد الســـوفييتي

إن مجرد الحجم الكبير لا يشكل عنصراً مريحاً لأصحابه في سائر الأحوال ، ولكن الاتحاد السوفييتي ينتفع كثيراً بضخامة امتداده الجغرافي وكثرة سكانه وإن كانت كثرة المسلمين في أجزائه الشرقية والجنوبية تمثل بؤرة تثير التساؤل حيث يشكل أولئك الناس مجموعة من الضخامة بحيث يجعلون من الاتحاد السوفييتي خامس دولة في العالم بالنسبة لعدد المسلمين فيه وهي حقيقة بدأت تحمله على الارتجاف تخوفاً من المستقبل .

ومع اننا سنورد صلب المقال الأخير في هذا المقال إلا أننا سنفعل ذلك بذهنية متفتحة غير ناسية أبرز ما ورد ويرد من تعليقات ودراسات وصلت إلى علمنا عن العالم الإسلامي في محافل الغرب والشرق .

وإذا كان تركيزنا ظاهراً على مقال الأيكونومست بالذات فذلك لأن المعلومات الرقمية المتاحة عن المسلمين في الاتحاد السوفييتي ما زالت قليلة منذ فرض عليهم ما فرض من إجلاء واضطهاد وكبت رهيب للحريات . .

ولو قد استدام الحال بعد الحرب العالمية الثانية على ما كان عليه قبلها لكنا في ظلام مطبق على ماهية ما يدور هناك . لكن الاتحاد السوفييتي كما هو معروف تقرب إلى المسلمين تقرباً كثيراً عندما وصلت جحافل هتلر إلى ستالنجراد ووجد نفسه مضطراً لأن يسلم ولو بجزء من واقع الحال في أوساط المسلمين الذين ضمهم إليه بالقوة القاهرة وبعد حروب وأهوال دامت طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الماضيين .

والواقع أن عدد المسلمين الحقيقي ليس معروفاً بالضبط ولكن من يقدرون هناك بثلاثة وأربعين مليون نسمة هم من أنشط عناصر البلاد ولهم تقاليد حضارية عميقة الجذور هي الثقافة الإسلامية في عهد الخلافة التركية وهم يرون أنفسهم متفوقين تماماً على السكان الروس في الاتحاد الذي يضمهم في دولة واحدة ومعظم هؤلاء المسلمين

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

يعيشون في ست جمهوريات هي القرغيز ، وطاخستان ، وأوزبكستان ، وتركمانستان في وسط آسيا ، وفي هضبة الجازخستان الشاسعة الامتداد ، وأما الجمهوريتان الباقيتان فهما أذربيجان والقوقاز الشمالي ( جمهورية واحدة ) والمسلمون التتار الذين أجلاهم ستالين عن بلادهم الأصلية في القرم فأصبح معظمهم بعد التشرد يحيون في قازان وما حولها .

إن سبعين في المئة من سائر هؤلاء المسلمين على اختلاف أصولهم العرقية من أصل تركي ، كما أن سائر لغاتهم تشكل لهجات ذات أصل مشترك ؛ كما أن اشتراكهم في تاريخ حضاري موحد كان عنصراً أساسياً في توحدهم فكراً ومشاعر وسلوكاً ، والأغلبية الساحقة من هؤلاء جميعاً من المسلمين السنة أما الأقلية البسيطة من الشيعة فمعظمهم في أذربيجان .

والحقيقة أن علاقات المسلمين مع جيرانهم الروس لا تسير رخاء فثمة ظاهرات تقلق الروس ، إن معدل زيادة المسلمين ما بين عامي (١٩٧٠) و (١٩٧٩) قد كان أربعة وعشرين في المئة بينما لم يتعد ذلك المعدل عند الروس ستة ونصفاً بالمئة . وإذا استمرت هذه الزيادة على حالها فإن معناها ارتفاع عدد المسلمين لدى السوفييت في نهاية القرن إلى رقم يتراوح بين ٦٥ مليوناً و ٧٥ مليوناً مما يجعلهم ربع سكان الاتحاد السوفييتي كله ، فيما ستنخفض نسبة العنصر المتفوق من الروس في الاتحاد إلى نصف السكان فقط .

## الاقتراب من الإسلام :

لكن موضوع الأرقام ليس العنصر الوحيد المقلق وإنما هناك ظاهرات أخرى ليست أقل أهمية . فالمسلمون في جمهوريات آسيا الوسطى مثلاً دام استقرارهم في مواقعهم واستمساكهم بتجمعهم واعتزالهم بنسبة ٩٩ في المئة من مجموعهم فيما هبط كثيراً عدد الروس البيض الوافدين إليهم بتشجيع متواصل من حكام موسكو قبل ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ وبعدها ولا سيما في عصر خروشوف بل إن الرياح تهب على عكس ما تشتهيه الإدارة في موسكو فقد تبين مؤخراً أن مئة وخمسين ألفاً من الروس البيض الذين كانوا قد هاجروا إلى ولايات المسلمين آثروا حزم أمتعتهم والخروج من الوسط الإسلامي خلال حقبة السبعينات عائدين إلى الغرب الروسي وكذلك قل عما يجرى في

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

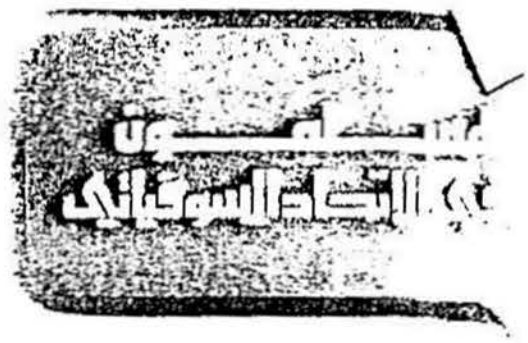

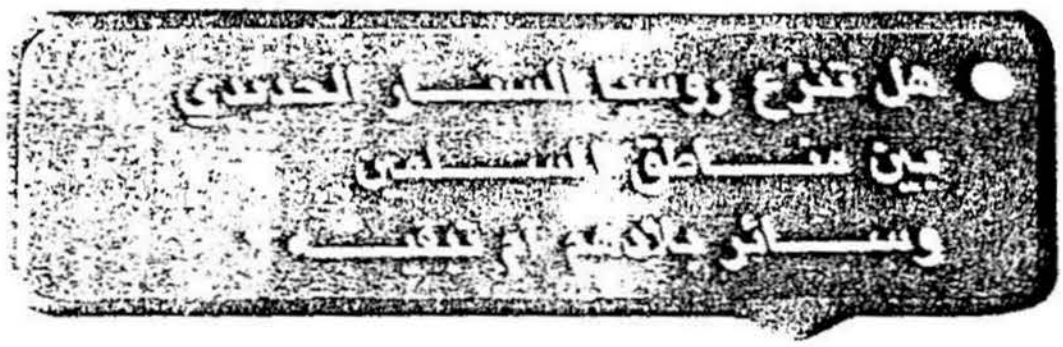

أذربيجان والقوقاز كما أن هناك بوادر واضحة على شروع الروس البيض في الهجرة من قزخستان أيضاً .

ويقع هذا الحزام الجنوبي الاسلامي للاتحاد السوفييتي في جوار مناطق الوعي الإسلامي المتفجر ، ويقدر أن يصبح السكان الروس أقلية في سائر هذه الحدود الهامة للاتحاد السوفييتي بنهاية القرن الحالي . إن هذا الأمر يخلق مشكلتين للاتحاد أولاهما اقتصادية والأخرى خاصة بالطاقة البشرية ، فالمواد الخام الاستراتيجية تكاد لا تتوافر إلا تحت ثلوج سيبيريا الفصية البعد فيما القاعدة الصناعية مركزة في روسيا الغربية فيما تتزايد الطاقة البشرية الاسلامية اللازمة لتشغيل المصانع في تلك القاعدة . ولا يبدي المسلمون أية رغبة في الانتقال إلى سيبيريا حيث المواد الخام ولا إلى الغرب حيث المصانع برغم كل الإغراءات الحكومية . ولما كانت مدن الغرب الروسية الصناعية تزخر بمن فيها من السكان الروس فإن الموقف الاستيعابي صعب . . ولا يوجد حل لهذا الوضع سوى إنشاء المصانع في جمهوريات المسلمين ، وفي هذا ما فيه من رفع المستوى التقني للمسلمين وإثارة حفيظة الروس في الغرب .

أما المشكلة الثانية فهي سياسية .

## مثقفو المسلمين يرفضون أن يكونوا مندوبين عن موسكو بين شعوبهم :

لقد كان الأمل في أوساط السوفييت بأن يتزايد تحول المسلمين إلى المبدأ الشيوعي بارتفاع مستواهم الثقافي . . لكن سائر هذه الحسابات فشل فشلاً ذريعاً في مطابقة الحقيقة فالمسلمون المثقفون الجدد زادتهم الثقافة استمساكاً بدينهم والتصاقاً بأوطانهم ، ويندر جداً أن يتزوجوا من غير المسلمين . ومع أن هؤلاء الأماثل بين المسلمين أشبعوا بالدعايات الشيوعية خلال فترة دراستهم لكنهم يرفضون أن يمثلوا دور الوكلاء لموسكو بين شعوبهم ، وعلى العكس فهم يتبنون مطالب تلك الشعوب ، وصحيح أنهم يلتقون مع الروس في نطاق العمل لكنهم يصبحون مسلمين مئة بالمئة في حياتهم الخاصة .

إن تماسك المسلمين وعددهم سيحملان روسيا على القلق ، ومع أن موقف المسلمين مشكلة بحد ذاته إلا أن الأزمة تزايدت بانتشار مد الوعي الإسلامي الجديد وظهوره .

ولا شك أن الوعي الإسلامي الجديد قد ترك بين مسلمي روسيا نفس الآثار التي نتجت عنه في سائر العالم الإسلامي ، ولكن تكريس الإلحاد كمبدأ في الاتحاد السوفييتي يجعل مشكلة الوعي الإسلامي أضخم هناك . لقد كان وما يزال معروفاً ما خطط له فيلسوف الإلحاد

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الشيوعي لينين خلال العشرينات والثلاثينات من ضرورة خلق ذهنية بين مسلمي روسيا تماثل ذهنية الطبقة العاملة في لينتجراد الأمر الذي حملهم على حصد ملايين من زعماء الإسلام وقادة فكره ووجوه أهله في الاتحاد السوفييتي لكن تلك الحملة الرهيبة التي امتدت في الواقع خمسين عاماً تحطمت على صخرة الإسلام المذهل .

## ثمانـــــــــون في المئـــــــــة
## مقابل ثمانـــين عكســـــــــــية .

ومع أن قبضة المسلمين قد أزيحت في ولاياتهم عن تسيير شؤونهم الاقتصادية والسياسية إلا أن الذين يستطيعون أن يتظاهروا بأنهم أصبحوا ملاحـدة في ولايات المسلمين لا تتعدى نسبتهم العشرين بالمئة ، بينما يستعلن ثمانون في المئة بالإسلام . .

ومع ذلك فهذه الأرقام احتياطية إذ الواقع أن نسبة المستمسكين بالإسلام أكثر من ذلك بكثير بينما نجحت الحملة الإلحادية في رد ثمانين بالمئة عن ديانتهم الأرثوذوكسية النصرانية ولم يبق من المؤمنين النصارى سوى عشرين في المئة من مجموع السكان الضخم .

وبذلك لم يبق مجال للشك في أن الإسلام في مقابل النصرانية هو الدين المتفوق كدين وكمنهج حياة .

إن الإسلام في روسيا ، رغم ما يعبر عنه رجاله وعلماؤه من سرور بالحرية التي ينعمون بها هو في الواقع الدين الذي حافظ على صفائه ونقاوته لم يضار في شيء منهما أبداً ولم يتلوث بشيء من لوثة الماركسية ، كما أن المسلمين يرفضون باستهزاء كل فكرة تزعم بإمكان نشوء حركة توفيقية بين الإسلام والماركسية .

ويعتبر العلماء الرسميون لمسلمي روسيا من أنشط رجالات العلم المسلمين في العالم وأكثرهم شباب في العقد الثالث من أعمارهم من الدارسين في جامعات مصر والمغرب وهم في الواقع من الليبراليين من مدرسة الشيخ رشيد رضا وشهاب الدين المرجاني المصلح الإسلامي التتاري المشهور . أما غير هؤلاء من قادة المسلمين فهم من السنة المتشددين وهم يتحلون بروح محاربة فيها من شدة أسر القوقاز وذكريات جهاد أهله . ومن أبطاله القوميين المجاهد الإمام شامل الذي أبلى بلاءً عظيمًا في مجاهدة الزحف الروسي على القفقاس ومنهم الشيخ أوزون حاجي الذي قاد آخـر انتفاضة داغستانية ضد السلطات الشيوعية عام ١٩٢٠ ، واليهم ينتمي جمال الدين الأفغاني العالم الديني المناهض للغرب والاستعمار بأشكاله .

والواقع أن معظم نشاط هؤلاء تتولاه جماعات الاخوان الصوفيين المحظورة من قبل السلطات السوفييتية ولكنهم مع ذلك صمدوا ،

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

وظل نفوذهم على جلائه وروائه برغم الحملات المتعاقبة التي شنت عليهم وذلك بفضل الالتحام التام بينهم وبين شعبهم .

ويستفاد من تقديرات أحد علماء الاجتماع السوفييت أن أكثر من نصف سكان القوقاز المسلمين هم من الاخوة الصوفيين . وينشط هؤلاء الاخوة في دعايتهم القوية ضد مبادىء الإلحاد وهم يتولون سائر الخدمات الدينية في مختلف المناسبات وهم يتولون بأنفسهم تنفيذ مناهج الدراسة التي يضعونها لمدارسهم الشديدة الاستمساك بالعقيدة الاسلامية وهم على طول الخط مناوئون لكل أشكال العلمنة والالحاد والحياة العصرية المتحللة وكذلك لسياسات الاتحاد السوفييتي في بلادهم وهم يشنون حملة شعواء على رجال العلم المستسلمين للأمر الواقع وينعتونهم نعوتاً قاسية .

## هل تنزع روسيا ستارها الحديدي عن المسلمين ؟!

ويبرز سؤال وجيه وهو هل هذا الوجود الاسلامي داخل الاتحاد السوفييتي يساعد سياسات روسيا في الوطن الإسلامي الكبير أم هو يعرقلها ؟ لا شك أن المثقفين ثقافات أدبية ولغوية وسياسية حديثة ممن أفسح لبعضهم المجال في جهاز الخارجية السوفييتية قد ساعدوا على الترويج للسياسات السوفييتية وقد وصل بعضهم إلى رتبة السفير ، ومن الأمثلة على ذلك سفير روسيا الحالي في أفغانستان فهو من تتار الطوجا . ومثل هؤلاء المثقفين في تقييم الغرب هم أشد خطورة من الاتحاد السوفييتي فهم مثلاً رحبوا بدخول السوفييت إلى أفغانستان وإن كان واقع الأحوال أن الجنود الذين استجلبوا من مسلمي روسيا إلى أفغانستان أول هجمة الاحتلال السوفييتي لم يفعلوا الكثير ضد إخوانهم المسلمين ، ولا شك أن المثقفين من هؤلاء المسلمين مع ذلك يعملون كعامل ملطف في صالح الاتحاد السوفييتي في داخله وخارجه على حد سواء ، ولولا جهودهم والدعاية التي يديرونها لما استطاع الاتحاد السوفييتي أن يبرز نفسه في صورة « الصديق المثالي للإسلام » .

لكن أخطار الانتعاش الإسلامي داخل الاتحاد السوفييتي لا يمكن التقليل من شأنها ، ذلك بأن طائفة كبيرة من مسلمي تلك البلاد أصبحوا على جانب ملحوظ من الدراية التقنية والمهارات المهنية والثقافة الأكاديمية العميقة لكنهم في الوقت نفسه يستشعرون فراغاً نفسياً ضخمًا ذلك بأن مذابح ستالين في الثلاثينات أخمدت شعلة الإصلاح الإسلامي الثوري سعياً وراء تحويل المسلمين بقوة النار والحديد إلى التيار الاشتراكي الأمر الذي يجعلهم الآن على أتم استعداد لتقبل الأفكار الاسلامية المتفجرة الواردة من منطقة الشرق

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

الأوسط فذلك كله فيه شفاء لأرواحهم الظامئة من فرط ما أكرهوا على سماع ما يكرهون من الحذلقات الماركسية .

ولقد يتطوع مسلمو آسيا الوسطى للمساعدة على مد النفوذ السوفييتي ولكنهم لن يفعلوا ذلك إلا في مقابل تنازلات من سادة الكرملين كوقف الدعايات المعادية للاسلام وفتح المساجد الجديدة وزيادة تمثيل المسلمين في المراكز الادارية التنفيذية وهي أمور ستؤدي إلى استقلال المسلمين الذاتي المضعف بالتالي لسلطة السوفييت المركزية .

وليس أمام السوفييت إذا شاؤ وا التوسع في الشرق الأوسط إلا أن يرفعوا إحدى رايتين : راية التعاون الإسلامي السوفييتي أو راية الماركسية المحضة ، والأرجح أن اختيار روسيا هو راية الماركسية الأمر الذي من شأنه تقوية حجة الثوريين الإسلاميين في مجتمعاتهم المحلية . وقد عدلت روسيا عن التعاون مع المسلمين في مرحلة احتلالها الثاني لأفغانستان بجنودها الشيوعيين من غير المسلمين ممن يقاتلون مجاهدي تلك البلاد الآن ولكن هذه الحال لو استمرت طويلاً فسوف تنطوي على خطر داخلي بالغ الأثر على أمن روسيا واستقرارها .

وهناك طريقة أفضل للاتحاد السوفييتي لتقليل الخطر الداهم عليها من الوعي الإسلامي في حدودها الجنوبية والأخذ بالتسرب من إيران وأفغانستان وغيرهما إلى الشعوب الإسلامية في ذلك الاتحاد ، وتلك الطريقة هي القيام بانسحاب تدريجي من أفغانستان ورفع الستار الحديدي الروسي الذي وضع للحيلولة دون اتصال مسلمي روسيا بذوي قرباهم ، واخوان عقيدتهم في البلدان المجاورة وسوف يتوقف الشيء الكثير على مدى قدرة المجاهدين الأفغان على مواصلة القتال ، وعلى مصير الحركة الإسلامية المتشددة في إيران وعلى تأثير حملة الدعاية الضخمة الموجهة من الصين إلى المسلمين في الاتحاد السوفييتي .

وهكذا فإن الزحف الأحمر على أفغانستان ارتد أثره على الزاحفين ، وأضر كثيراً بسمعة الروس وأبطل أثر دعاياتهم في العالم الإسلامي . ومن الملاحظ أنه منذ انفضاض المؤتمر الفاشل الذي عقد في طشقند عام ١٩٨٠ والذي رفض حضوره أكثر من نصف المدعوين إليه لم تعمد روسيا حتى الآن إلى إرسال أي وفد من مسلميها إلى الخارج كما توقف تمجيد خدمات الشيوخ المسلمين في الدعايات الروسية وبدأت تظهر بوادر حملة معادية للاسلام وللقوميات المحلية الإسلامية في وسط آسيا والقفقاس . . فهل يعني ذلك أن الاتحاد السوفييتي عاود إحكام إسدال ستاره الحديدي على المسلمين في حدوده الجنوبية ؟ ذلك ما ستكشف عنه الأيام القريبة المقبلة .

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية